أخوة ضائعة ... متى تعود وكونوا عباد الله إخوانا

أ.د. نادي عبدالله (*)

أخـوَّة لها معانيها، ولها حقوقها، ولها ثمرتها، فهي شـجرة وارفة يسـتظل الجميع تحت ظلها، إنها أخوة الإيمان، أخوة الدين، التي تربط بين المسـلم وأخيه المسـلم، أخوة هي أعظم من أخوة النسب، ورابطة هي أقوى من رابطة الدم؛ ولذلك حض الشرع على كل ما يزيد منها ويقويها؛ لأن بها قوة الدين، وتعاون المسـلمين، ونهى عن كل ما يضعفها؛ لأن في إضعافها فساد الدين، وشتات المسلمين، نبهنا الله إلى ذلك فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾.

(آل عمران: ١٠٢، ١٠٣)

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «لا تحاسَدُوا، ولا تناجَشُوا، ولا تباغَضُـوا، ولا تدابَرُوا، ولا يَبِـعْ بعضُكم على بيع بعض، وكونوا عبادَ الله إخوانًا، الـمسلمُ أخو الـمسـلم، لا يظلِمُـه، ولا يخذلُـه، ولا يكذبُه، ولا يحقره، التقوى ههنا -ويشـير إلـى صدره ثلاث مرات- بحسـب امرئ من الشـر أن يحقـرَ أخاه الـمسـلم، كلُّ الـمسلم على الـمسلم حرامٌ؛ دمُه، ومالُه، وعرضُه»[1].

إنها أخوة راسخة باقية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ (الحجرات: ١٠)، حين تقوم الأمة بواجباتها تشعر بكل معاني العزة والفخر، والكرامة والنصر؛ وذلك لأن المسلم يعيش مع إخوانه المسلمين، لا يحسدونه، ولا يظلمونه، ولا يخذلونه: أي لا يتركون نصرته حين يحتاج إليهم.

وفي هذا الحديث الشريف الذي هو من جوامع الكلم يرشدنا رسولنا الأكرم ﷺ إلى واجبات هذه الأخوة ومتطلباتها، أن نكون متحابين متآلفين، نسعى جميعًا بالتحلي بمكارم الأخلاق، ونبتعد

(*) أستاذ بجامعة الأزهر.

(١) أخرجه مسـلم، كتاب البر والصـلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، (٤/١٩٨٦)، برقم: (٢٥٦٤).

عن مساوئها، في معاملاتنا مع بعضنا البعض، معاملة سامية خالية من الغش، والحسد، والظلم، وغيرها من الأخلاق المذمومة، معاملة قائمة على الأخوة الإيمانية بكل معانيها.

فالمسلم أخو المسلم (فلا يظلمه): بأي نوع من أنواع الظلم، في قول أو فعل، ولا يؤذيه بأي نوع من الأذى.

(ولا يخذله): الخذل ترك الإعانة والنصر، ومعناه: إذا استعان به في دفع ظالم ونحوه لزمه إعانته إذا أمكنه ولم يكن له عذر شرعي في التقاعس عن نصرته، وفي رواية البخاري (ولا يُسلمه) بدلًا من (لا يخذله)، قال ابن حجر: أي لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه، وقد يكون ذلك واجبًا وقد يكون مندوبًا بحسب اختلاف الأحوال[٢]. وهذا أخصُّ من ترك الظلم، وبخاصة إذا كان في محنة، واحتاج إلى إخوانه، زاد الطبراني من طريق سالم بن عبد الله بن عمر «ولا يسلمه في مصيبة نزلت به»[٣].

فالمسلم لا يترك نصرة أخيه المسلم المشروعة، سيما مع الاحتياج أو الاضطرار إليها؛ لأن من حقوق أخوة الإسلام التناصر؛ قال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ (المائدة: ٢)

وقال تعالى:

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال: ٧٢)

وقد نهى النبي ﷺ عن خذلان المسلم لأخيه المسلم، ورغَّب في نصرته، أخرج أحمد في مسنده[٤] من حديث جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاريين -رضي الله عنهما- قالا: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن امرئٍ يخذلُ امرَءًا مسلمًا، عند موطنٍ تُنتهَكُ فيه حرمتُه، ويُنتقَصُ فيه من عِرضه، إلا خذله الله عز وجل في موطنٍ يحبُّ فيه نصرته، وما من امرِئٍ ينصرُ امرَءًا مسلمًا، في موطن يُنتقَصُ فيه من عِرضه، ويُنتهَكُ فيه من حُرمته، إلا نصره الله في موطنٍ يُحبُّ فيه نصرتَه».

وقد أمر رسولنا الأكرم ﷺ أن ينصر المسلم أخاه المسلم، ظالمًا كان أو مظلومًا، عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «انصرْ أخاكَ ظالمًا أو مظلومًا»، قالوا: يا رسول الله، هذا ننصُره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: «تأخذُ فوق يديه»[٥].

وبيَّن ﷺ أن المجتمع المسلم بنيانٌ متكامل، يشدُّ بعضه بعضًا، ويقوِّي بعضه ببعض، فعن أبي موسى -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «المؤمنَ للمؤمنِ كالبنيانِ يشُدُّ بعضُه بعضًا»، وشبَّكَ بين أصابعه[٦].

فقد شبَّه نبينا الأكرم ﷺ الأمة بالبنيان تترابط لبِناته مع بعضها البعض حتى تصير وكأنها قطعة واحدة، وهذا ما ينبغي أن تكون عليه أمتُنا من الترابط والاتحاد والاعتصام.

وفي حديث آخر يُشبِّه ﷺ مجتمع المؤمنين بالجسد الواحد الذي يهتم فيه كل عضو بالآخر، عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ:

(٢) فتح الباري (٥/٩٧).
(٣) أخرجه الطبراني في معجمه،برقم: (١٣٢٣٩).
(٤) برقم: (١٦٣٦٨)، وأخرجه أبو داود في سننه، برقم:(٤٨٨٤).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (٢٤٤٤).
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه،برقم(٢٤٤٦).

«مَثَلُ المؤمنينَ في تَوادِّهم، وتَراحُمِهم، وتَعاطُفِهم مَثَلُ الجسدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تَداعَى له سائرُ الجسدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى»[٧].

قال القاضي عياض: تمثيلٌ صحيح، وتقريبٌ للأفهام فى إظهار المعانى فى الصور المرئية، فيجب على المسلمين امتثالُ ما حضَّ -عليه السلام- عليه من ذلك والتخلُّق به[٨].

قال ابن رجب: وهذا يدل على أن المؤمن يسوءه ما يسوء أخاه المؤمن، ويحزنه ما يحزنه.[٩]

قال ابنُ أبي جمرة: الذي يظهر أن التراحم والتوادد والتعاطف وإن كانت متقاربة في المعنى لكنْ بينهما فرق لطيف، فأما التراحم فالمراد به أن يرحم بعضهم بعضًا بأخوة الإيمان لا بسبب شيء آخر، وأما التوادد فالمراد به التواصل الجالب للمحبة كالتزاور والتهادي، وأما التعاطف فالمراد به إعانة بعضهم بعضًا كما يعطف الثوب عليه ليقويه.[١٠]

وهذا الحديث عند الترمذي[١١] من رواية أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله...». وتحصَّل من ذلك أن المسلم لا يظلم أخاه المسلم، ولا يخذله، ولا يسلمه، ولا يخونه، ولا يكذبه، ولا يحقره.

ثم يرشدنا ﷺ أن نكون عبادًا لله إخوانًا، فقال ﷺ: «وكونوا عبادَ الله إخوانًا»، قال الإمام النووي -رحمه الله-: ومعنى كونوا عباد الله إخوانًا: أي تعاملوا وتعاشروا معاملة الإخوة ومعاشرتهم في المودة والرفق، والشفقة، والملاطفة، والتعاون في الخير، ونحو ذلك من صفاء القلوب والنصيحة بكل حال[١٢].

أما آنَ للأمة أن تعود إلى تعاليم ربها، وسُنَّة نبيها، فلا يتقاطعون، ولا يتدابرون، ولا يتحاسدون، ولا يخون بعضهم بعضًا، ولا يكذب بعضهم بعضًا، ولا يغش بعضهم بعضًا، وإنما يلتقون على مائدة الأخوة الإيمانية، فيشد بعضهم بعضًا، ينصر القوي الضعيف، ويأخذ الغني بيد الفقير، وتسُود بينهم روح التعاون والمساندة، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٧١)

وحين تُحقِّق الأمة هذه المعاني السامية، وهذه التعاليم الراقية، تكون لها العزة والكرامة لا محالة، قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(المنافقون: ٨)

نسأل الله أن يعيد لهذه الأمة ماضي عهدها، وسالف مجدها، وأن يرفع عنها الوباء والبلاء، وأن يجعل بلادنا الحبيبة مصر أمنًا وأمانًا، وسلمًا وسلامًا، وسائر بلاد المسلمين.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، (٢٥٨٦).
(٨) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٥٧/٨).
(٩) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٣٠٦/١).
(١٠) فتح الباري (٤٣٩/١٠).
(١١) أخرجه الترمزي في سننه، برقم:(١٩٢٧)، والبزار في مسنده، برقم : (٨٨٩١).
(١٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٣٥١).